

الخصائص الفنية للخطابة عند البشير الإبراهيمي :

أ. معمر الدين عبد القادر

المشرف : عبد المالك مرتاض

جامعة وهران1- أحمد بن بلة

شهدت الخطابة على عهد الإبراهيمي ازدهارا كبيرا وتطورا ملحوظا بفضل نشاط الجمعيات والنوادي الثقافية وانتشار الصحف السيارة. وقد ساعدها في ذلك ظهور نخبة من الأدباء والمصلحين في جمعية العلماء المسلمين، يدعون إلى أفكارها، وينشرون مبادئها بين الناس، ويأتي في " مقدمة خطباء الإصلاح الذين شهروا بالفصاحة والبيان الشيخ عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، وأحمد توفيق المدني، وغيرهم من ممن بقيت بعض آثارهم مسجلة في صحف جمعية العلماء مثل الشهاب، والبصائر، والسنة، والصراط، والشرعية، وغيرها من المصادر.¹ والذين وجدوا فيها أفضل أداة وأحسن أسلوب لبث تلك الأفكار في مرحلة خطيرة من حياة الشعب الجزائري، وحبلت بالأحداث الفكرية والسياسية التي عكست جانبا مهما من أدب المقاومة الوطنية في الجزائر .

ويأتي الإبراهيمي في طليعة أولئك الخطباء وبلغائهم، ذلك أن الخطابة بلغت على يده شأوا بعيدا بفضل ما تميّز به من فصاحة لسان، وعرض بيان، وسرعة بديهة، وقوة حافظة. وهي في ذلك كله تستمد أصالتها وقوتها من العصور الذهبية لهذا الفن .

ولعل اهتمام الإبراهيمي بالخطابة وكلفه بها، كان نتيجة لشعوره بأهميتها في تلبية حاجة الجمعية إلى طرح فكرتها وعرض فلسفتها على المجتمع. وتتسم الخطابة عنده بجملّة من الخصائص

الفنية التي تمنح أدبه خصوصيته الجمالية الراقية، وفرادته الأسلوبية العالية. وفيما يأتي بيان لهذه الخصائص:

1- الارتجال

2- الحماس

3- الخروج عن المألوف

4- الاقتباس من :

أ- القرآن الكريم والحديث الشريف.

ب- الشعر.

5- الإطناب و التكرار.

6- الاعتناء باللفظ و حسن العبارة.

1- الارتجال:

إن الارتجال سمة غالبية في خطب إبراهيمي، لذلك ضاع معظمها إذ لم يكن يكتب هذه الخطب، وإنما كان يلقيها مباشرة أمام جمهوره، فالارتجال صفة من صفات الخطيب المقتدر الذي يعتمد على ملكاته اللغوية الخاصة، وقدراته العلمية. ومما هو معروف، أنه كلما كانت الكلمة مرتجلة، كان وقعها في السامع أكثر قوة وأبلغ أثراً، لأن الأصل فيها الارتجال، ومجالها السمع لا القراءة.

والحقيقة أن إبراهيمي لم يكن يكتب خطبه قبل إلقائها، بل كانت تسجل بعد الإلقاء استجابة لطلب المعجيين به وتعميقاً للفائدة، كما تبين في خطبته التي ألقاها بمناسبة ختم حفلة التكريم للأستاذ "ابن باديس" في كلية الشعب، وقد نبّهت مجلة الشهاب في تصديرها هذه الخطبة بما يلي: " ارتجل الأستاذ خطبته هذه فلم تصطد أقلام الكاتبين من

ألفاظها إلا قليلا مشوشا لم يحفظ ترابط المعاني بين أجزائها، فألح جماعة من السامعين المعجبين على الأستاذ أن يكتب ما علق بذاكرته من ألفاظها ويضيف إليها بقلمه ما يربط بين معانيها حرصا على تخليدها في خطب الاحتفال، فحقق بكتابة ما يراه القارئ منشورا بعد هذا.² ثم ورد نص الخطبة عقب ذلك.

2- الحماس :

تميزت خطب الإبراهيمي بظاهرة الحماس الذي " يجب أن يحتويه الخطبة أكثر من مما يحتويه المقال.³ وتتأرجح هذه الظاهرة الانفعالية عنده بين اللين تارة والشدة طورا آخر بحسب ما تقتضيه الحالة أو ما يمليه الموقف. وعليه يتجه سير الخطبة نحو اللين كلما اتصل الأمر بالعقل وإعمال الفكر، كما نجد ذلك في مواضع النقد والتحليل والمقارنة وسوق الحجج، والبحث عن سبل الإقناع كقوله: " ولقد علمتنا لغة العرب فنا في مصاص الأشياء فقهننا منه أن من النساء عقائل، وأن في الأموال كرائم، وأن في الجواهر فرائد، وأن في النجوم دراري ...⁴ والخطاب موجه هنا إلى ذهن المتلقي الذي ينبغي أن يكون معدا إعدادا ثقافيا مناسباً حتى يتمكن من فهم وإدراك رسالة الخطيب. وفي معرض حديثه عن ماضي الأمة الإسلامية وحاضرها، يلجأ الخطيب إلى أسلوب المقارنة الذي لا يتعدى مستوى العقل أو يكاد، إذ يقول: " قارنوا بين هذه الأمة الإسلامية المطوية في بطن الأرض وفي بطون الكتب، وبين هذه الأمة الإسلامية التي تدب على وجه الأرض تجدوا الفرق بعيدا جدا، ووجوه الشبه مفقودة البتة مع وجود الاشتراك في الاسم والنسبة.⁵ هذا من جهة، ومن جهة أخرى تشتد نبرة الإبراهيمي كلما تعلق الأمر بالانفعال والعاطفة، فيتقاذف

جملاً قصيرة حافلة بالحماس والتوتر الذين يتركان أثراً عميقاً في النفوس. ونجد أن هذه الحالة الانفعالية تتكرر كلما تناول حديثه مسألة الصراع بين الجزائريين والاحتلال الفرنسي، وذلك حين يضطرّ الخطيب إلى حث الناس على مقاومة المحتل. ويؤكد هذا الملمح الفني الشيخ محمد الغزالي بقوله: " وكان في خطابه يزأر كأنه أسد جريح، فكان يتنزع الوجل من أفئدة الهيايين، ويهيج في نفوسهم الحمية لله ورسوله، فعرفت قيمة الأثر الذي يقول: (إن مداد العلماء، يوزن يوم القيامة بدم الشهداء)"⁶

ويتدرج الإبراهيمي في استثارة العواطف وتنبه المشاعر حتى تبلغ ذروة انفعالاتها مستعينا بصورة من الواقع المشاهد، فيقول: " ولو لا عهود يجب أن نرعاها لديارنا، لكننا نغفر لباريس جميع ما جرّته علينا من جرائم، ونمحو لها بهذه الحسنة جميع السيئات، ولكن تأبى علينا دماء في تونس تسيل، وشعب في المغرب الثلاثة يعدّ، وشباب تفتح له السجون والمعتقلات، وتغلق في وجهه المدارس والمعابد، ودين في الجزائر ممتن الكرامة."⁷

3- الخروج عن المألوف:

كان الإبراهيمي يتصرف في مطالع خطبه فيخرج بها عن مألوف خطب العرب إذ كان يؤثر استعمال عبارة (أيها الإخوان) في نداء الحاضرين معللاً ذلك بقوله: " فمعدرة إلى إخواني الذين أعتزُّ بأخوتهم إن خرجتُ عن النمط المألوف في رسوم الخطاب، وخاطبتهم بيا أيها الإخوان."⁸ ولعلّ تأكيد الخطيب على هذه العبارة يعود في اعتقادنا إلى أسباب يمكن أن نذكر بعضها منها فيما يأتي:

- أ- صدور مضمونها عن نزعة إنسانية أصلية في الإسلام وأساس هام في بناء وتماسك النسيج الاجتماعي للأمة.
- ب- إن إنزال السامعين في مقام الأخوة هو تعبير صادق على مكانة هؤلاء ومنزلتهم من نفس الخطيب.
- ج- إن استعمال هذه العبارة وتكرارها في الخطاب، يجعل الجمهور أحرص الناس ثقة في الخطيب وأكثرهم تصديقا لكلامه.
- د- توطيد علاقات الأخوة بين أبناء الأمة الواحدة مهما تعددت طوائفهم وأديانهم ومذاهبهم.

4- الاقتباس:

أ- القرآن الكريم والحديث الشريف:

تتمثل ظاهرة الاقتباس عند الإبراهيمي في استشاداته بالقرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي، وهي "خاصية من خصائص الخطابة الهدف منها الاعتبار والذكرى وإقامة الحجة والبرهان على الغاية المقصودة."9 أما بالنسبة لاقتباسه من القرآن الكريم، فإنه يتخذ شكلين، أولهما إيراد الآية كاملة مثل احتجاجه بالآية في معرض حديثه عن العدل في الإسلام، والإحسان وحب الخير للناس كافة: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"10 من سورة النحل، الآية 90. وثانيهما توظيفه للألفاظ القرآنية دونما إشارة لسياقها القرآني، مثل قوله: "فليكن آخر ما نتوصى به: الحق والصبر والاتحاد"11 إذ يحيل هذا النص مباشرة

على سورة العصر في قوله تعالى: " وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بالصَّبْرِ". وتلك ظاهرة نلّفها كثيرا في نصوص الإبراهيمي، وتدل على تأثير عميق ببلاغة القرآن ومحتواه الديني، فهي تكسب أسلوبه جمالا ورونقا، وتعضد أفكاره وتقوي حجته. غير أن التلقي الجمالي لنصوص كهذه لا يمكن أن يكون له أثر إذا لم يكن ثمة توافق تواصل بين الخطيب والمتلقي. ويمكن حصر شروط هذا التواصل في "صفة المواطنة، أو صفة الإمام باللغة، أو الانتماء إليها." 12 وإذا علمنا بهوية المخاطبين الذين توجه إليهم الإبراهيمي في خطبته تلك، أيقنا أن الرجل كان يعي ما يقول.

وأما الاقتباس من الحديث الشريف. فقد كان له حظ وافر في خطب الإبراهيمي. ففي أول صلاة جمعة له بعد الاستقلال، وبمسجد كتشاوة بالعاصمة، ارتجل الرجل كلمة جاء فيها: " يا معشر الجزائريين: إن الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا صلى الله عليه وسلم: " إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك " 13 ثم يؤول الخطيب هذا الحديث مبينا خطر الاحتلال الذي لا ينتهي بانتهاء وجوده العسكري على أرض الجزائر ما دامت ثقافته الاستعمارية - التي عمل مخلصاً على تجذيرها في عقول وقلوب أبناء هذا الشعب - باقية حتى يصدهم عن دينهم ولغتهم إن استطاع، تماما كما يفعل الشيطان بالإنسان حيث يوسوس له في صدره، ويزين له سوء عمله ليزيغ عن الحق، إذ يقول الخطيب: " فهو قد خرج من أرضكم

ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم.¹⁴ وبعد هذا التشخيص الدقيق لحال الأمة المثقلة بمخلفات الاستعمار يقدم الخطيب سبل العلاج والخلاص قائلا: " فلا تعاملوه (الاستعمار) إلا فيما اضطررتم إليه، وما أبيح للضرورة يقدر بقدرها.¹⁵ فالغرض من هذا الاقتباس هو إرساء صورة حقيقية لفرنسا الاستعمارية ومكائدها الدنيئة التي لا تصدر إلا عن شيطان رجيم، ويعد هذا الاقتباس ضربا من التشبيه يعادل فيه الخطيب بين حال الاستعمار وحال الشيطان إزاء من يكيد له.

ولعل شيوع ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف في خطابة الإبراهيمي، لاسيما ما جاء في سياق المواضيع المرتبطة بالدين والأخلاق والقيم، مرده إلى ثقافة الرجل الدينية، فقد ثقف أدب القرآن وعرف بيانه ووعي أسرارها، كما عرف الحديث رواية ودراية، فكان ذلك كله أمانة من أمارات أدبه، وطابعا يتميز به فنه الأصيل.

ب- الشعر:

إنَّ توظيف التراث العربي في خطب الإبراهيمي يتجلى على نحو واضح في تضمينها من شعر العرب ما يخدم غرضه ويوشح أسلوبه. ويتخذ هذا التضمين صيغا مختلفة في نصوصه، فقد يأتي بالبيت كاملا، أو ينشره نثرا، أو يجتزئ منه عبارة. وهو في كل ذلك ينزع إلى تحقيق أغراض متنوعة بحسب السياق الذي ترد فيه هذه التضمينات، ومن ذلك استشهاده بقول أحمد شوقي في معرض ذم التلاوم بين أبناء الأمة ونهيه عن:

” لا يَلْمُ بَعْضُكُمْ عَلَى الْخَطْبِ بَعْضًا أَيُّهَا الْقَوْمُ، كُلُّكُمْ أَبْرِيَاءُ “

وقد ورد هذا الاقتباس إثر قوله: ”كذلك يجب أن لا نقضي أعمالنا في التلاوم، وأن لا نكون كمن قال فيهم القرآن: ” فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَاوَمُونَ “¹⁶ ومن الجدير بالملاحظة في هذا النص أن يتبع الخطيب استشهاده من الشعر باستشهاده من القرآن الكريم وفي ذلك زيادة في التشنيع بالفعل الذي ينهاهم عنه.

وحين نستمع إلى قول الخطيب: ” ويا أيها المسلمون أنتم أطباء هذه المعضلات ولكنكم جاهلون، وأنتم الحكم المرضي في هذه المشكلات ولكنكم غائبون “¹⁷ فإن استعماله لعبارة ”الحكم المرضي“ تحيل المستمع – إن كان ملما بالشعر العربي القديم وشواهدة – إلى بيت الفرزدق الذي هجا به رجلا من بني عذرة احتكم إليه ، في المفاضلة بينه وبين جرير والأخطل ، فانحاز العذري إلى جرير وفضله عليه والبيت هو:

” ما أنتَ بالحكمِ التُّرُصِي حُكُومَتُهُ

ولا الأصِيلُ ولا ذي الرأْيِ والجدَلِ “¹⁸

ينفي الفرزدق أن يكون الشخص الذي خاطبه أهلا للحكم، فكلامه لا ينفذ ولا يعول عليه ولا يرجع إليه، فعبارة (التُرُصِي) وحدها كافية أن تصرف أذهاننا إلى شعراء النقائص في الأولين، وعلى الفرزدق تحديدا في هذا البيت الذي يُعرف به لأنه أدخل الألف واللام (ال) – وهي اسم موصول بمعنى الذي – على الفعل وليس على الاسم، لأن من علامات الاسم أن يقبل (ال) والنداء

والإسناد إليه، أما أن تدخل (ال) على الفعل فهو عمل نادر الحدوث، قليل الاستعمال، وقد علّق على هذه المسألة صاحب (شذور الذهب) بعد إيراد البيت مباشرة، بما يلي: "قلت ذلك ضرورة قبيحة"¹⁹.

والشعر عند الإبراهيمي ذكرى وعاطفة وحكمة، يلتمس فيه التعبير عن عواطفه وتقوية حججه وترصيع أسلوبه. وهو يعتمد إليه متى دعت الضرورة إلى ذلك، فلا يستعمل منه في الخطابة إلا بقدر حاجة المستمعين إليه وإقبالهم عليه. فإذا أحسنّ منهم فترة أمسك ورفع عنهم كلفة الاستماع إليه. وإذا شعر بشغفهم للاستزادة ألقى عليهم دررا غوالي - في ثنايا خطبه - ترجع إلى فحول شعراء العرب التي تفيض بلاغة وحكمة و ذرابة لسان.

5- الإطناب والتكرار:

استعمل الإبراهيمي الإطناب في كثير من خطبه، غير أنه لم يكن يختص به العامة فقط، وإنما هو للعامة والخاصة معا، ذلك أن الاعتماد على الإيجاز بعرض المعنى في لفظ قليل، لم يكن يبلغ به الغاية المرجوة. لذلك عمد إلى أسلوب الإطناب والإسهاب حتى يستوفي المعنى حقه من الإيضاح والإبانة. ومن ذلك قوله: "لسنا نعني بأيام الأمم، هذه الأيام المتعاقبة التي يجمعها نسق الأسبوع وتعرف بالأعلام وتمتاز بمراتبها العددية في الشهر، وإنما نعني هذه الأيام التي هي لمع في الدهور، وشيات في غرر العصور."²⁰ فالإطناب هنا أظهر المعنى في صورتين مختلفتين، الأولى مبهمة على

سبيل الإجمال في قوله (لسا نعي بأيام الأمم ... وتمتاز بمراتبها العددية في الشهر) أما الثانية فتأتي مفصلة للإجمال، ومفسرة للإبهام، وجوابا لما يتحرق السامع شوقا لمعرفته، في قوله (... وإنما نعي هذه الأيام التي هي لمع في الدهور، وشيات في غرر العصور)، وهكذا يتم المعنى وتزول حيرة السامع. فالإطناب على هذا النحو الذي يتم عند الإبراهيمي، لا يراد به تحسين اللفظ على حساب المعنى، وإنما هو زيادة في الفائدة وقصد إلى الإيضاح بعد الإبهام. وذلك نوع من أنواع الإطناب يشيع عند الخطيب. كما نشير في هذا الصدد إلى وجود أغراض أخرى لإطناب الإبراهيمي، لا يتسع هنا المقام لتناولها، ومنها ذكر الخاص بعد العام، وذكر العام بعد الخاص.

ولئن وجد في خطبه بعض التكرار، فما ذلك إلا من قبيل تقرير المعنى وتجميل الأسلوب بغرض إثبات المقصود وتمكينه في نفس السامع. والتكرار اللفظي غايته عند الخطيب تأسيس لمعنى جديد، يلفت به نظر المخاطب، ويثير اهتمامه، كما أن له أغراضا عدة، نذكر منها على سبيل المثال ما يأتي:

أ- تأكيد الرجاء : نحو قوله: " تلك هي الأمة التي نرجوها ونعلق عليها الآمال. تلك هي الأمة التي تمحو سيئاتنا بجسنتها...²¹ فعبارة الأولى (تلك هي الأمة) هي رجاء صادق يعلق عليه الخطيب أمله في أن تعود للأمة الإسلامية قوتها ومكانتها بين الأمم، كي تكفل للحق أن ينتشر، وللعادل أن يسود في العالم أجمع. وفي تكراره للعبارة نفسها (تلك هي الأمة) تأكيد لهذا الرجاء.

ب- طول الفصل: كما في قوله: " فنحن عباد الرحمن الواجب علينا امتثال أمره، وأعداء الشيطان الواجب علينا اتقاء شره واجتناب مكره. "22 فكرر (الواجب علينا) لطول الفصل بين الأول ومتعلقه وهو (امتثال أمره) والثاني (اتقاء شره) وذلك خشية أن يكون الذهن قد غفل عما ذكر أولاً.

6- الاعتناء باللفظ وحسن العبارة:

يعتمد أسلوب خطابة الإبراهيمي على حسن اختيار الألفاظ والاعتناء بها لتكون زينة لمعانيه، فيخرج هذه المعاني - مهما كانت قيمتها - في ثوب من الروعة والجمال، وهو مذهب طائفة من العلماء والأدباء "من توارثوا فنون الأدب والثقافة العربية من عصورها المختلفة، واعتدوا بها واستعانوا بطاقتها التي استلهمتها عقولهم، فجرت بها ألسنتهم وأقلامهم."23 وقد كان يستثمر هذه الألفاظ - أحياناً - في الزمان، فيستحضر وجودها ووظيفتها في القدم لمطابقة الواقع بالحاضر، وينحت منها ما يخدم فكرته ويدعم به رأيه كما فعل حين قارن بين أصوات الأمم المتحدة وأصوات (الغريض) و(معبد)، فالأصوات الثانية توهم بخلاف المقصود، والغرض هنا هو الاحتراس من فساد سياسة الأمم المتحدة المتحاملة على الشعوب المستضعفة لصالح الشعوب القوية.

ومن الجدير بالملاحظة أن الإبراهيمي كان يميل في خطبه إلى اقتناء الألفاظ السهلة المألوفة وتجنب حوشي اللفظ وغريبه لمراعاة مقتضى الحال، ذلك أن جمهور سامعيه تنوع مستوياتهم الثقافية،

فقلما ترد ألفاظ غريبة الاستعمال في خطبه. وإن وردت، تأتي عفوية بغير تكلف ولا تصنع.

وعلى الجملة، فقد أدرك الإبراهيمي خطر الخطابة في الدعوة إلى الحق واستنفار النفوس في طلبه، فتوسلها لخدمة قضية شعبه، وتحقيق أهداف أمته، مستندا إلى نصوص القرآن الكريم، والأحاديث الدينية الشريفة، والتراث الأدبي العربي القديم وأساليبه الفنية العريقة، كل ذلك جعل منه خطيبا بليغا، ومصلحا كبيرا يحترم عقله وفكرته ودعوته، مما كان له أثر كبير في الارتقاء بأدب الخطابة وتطوره، وتحقيق الأهداف السامية من اعتماده.

الهوامش:

- 01- عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث (1930/ 1974) ط.3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983، ص23
- 02- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، دار الغرب الإسلامي، ط.1، بيروت 1997، ج. 4، ص 360.
- 03- محمد عباس، البشير أديبا، ديوان المطبوعات الجامعية، المطبعة الجهوية، الجزائر (بدون تاريخ)، ص320.
- 04- محمد البشير الإبراهيمي، م.س، ج.1، ص361.
- 05- م.ن، ص363.
- 06- محمد الغزالي، مع البشير في القاهرة، مجلة الثقافة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، عدد87، الجزائر: مايو 1985، ص96.
- 07- محمد البشير الإبراهيمي، م.س، ج.2، ص466.

- 08- م.ن، ج.2، ص465.
- 09- عبد الله ركيبي، م.س، ص20.
- 10- محمد البشير الإبراهيمي، م.س، ج.1، ص365.
- 11- م.ن، ج.2، ص472.
- 12- عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم- مساءلات حول نظرية الكتابة- دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ص31.
- 13- محمد البشير الإبراهيمي، م.س، ج.5، ص307.
- ألفت هذه الخطبة بمسجد كتشاوة في 02 نوفمبر سنة 1962، أمام السلطات العليا للبلاد، ووفود الدول الصديقة والشقيقة.
- 14- محمد البشير الإبراهيمي، م.س، ج.5، ص307.
- 15- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 16- م.ن، ج.2، ص469.
- هذا البيت لم يرد في ديوانه.
- سورة القلم، آية:30.
- 17- محمد البشير الإبراهيمي، م.س، ج.1، ص364.
- 18- هذا البيت لم يرد في ديوانه.
- 19- ينظر: ابن هشام الأنصاري، شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تح: حنا الفاخوري، دار الجيل، ط.1، بيروت 1988، ص21.
- 20- محمد البشير الإبراهيمي، م.س، ج.1، ص360.
- 21- م.ن، ج.1، ص142.
- 22- م.ن، ص132.
- 23- محمد عباس، م.س، ص199.

